التحدى الذى تواجهه الثورة فى عامها العشرين والأعوام المقبلة!

بقلم
ابراهيم عامر

فى ٣٠ يونيو الماضى ،وجه الرئيس أنور السادات بيانا الى الشعب ، يعتبر فى الواقع وثيقة تضاف الى وثائق الثورة على طول تاريخها • تضاف الى فلسفة الثورة ، والميثاق ، وبيان ٣٠ مارس •

وفى هذا البيان ، الذى وجهه قائدالثورة فى مرحلتها الراهنة ، قال الرئيس السادات:

« سيظل العدوان الاسرائيلى حتى بعدانهاء المهمة العاجلة ، وهى تحرير الارض •• سيظل هذا العدوان سيفا مصلتا على بلادنا ،وعلى نهضتنا الصناعية ، وعلى لقمة خبز اولادنا وأولاد اولادنا من بعدنا، مالم نواجه التحدى الحضارى بتحد حضارى •

« ولن يكتب للمنطقة سلام ، الا اذا استطعنا ان نبنى دولة عصرية تتسلح مدنيا وعسكريا باحدث اسس العلم والتقدم •

« ان قيام دولة عصرية فى بلادنا ، تعتمد على العلم والايمان ، يشكل ضرورة بقاء ، وضرورة حياة » •

وهذا ادق واوضح تحديد لنوعية التحدى الذى يواجه ثورتنا فى العام القادم ولاعوام كثيرة مقبلة • وهو ما يقتضى تكريس كل الجهود الثورية فى سبيل مواجهته •

ولكن : كيف ؟

اولا :

بكل ترتبط الثورة اكثر واكثر بالثورة العالمية ، والثورة العربية ، والثورة الوطنية الشعبية •

ان هناك اجماعا كاملا على اننا نعيش عصرا يمكن ان نطلق عليه اسم « عصر الثورات » •

وهو ليس فقط عصر الثورات السياسية ، والوطنية بصفة خاصة ، وانما هو ايضا عصر الثورات فى جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنيكية، وهو عصر الثورات فى القيم المعنوية والاخلاقية •

وهو ، اولا وقبل كل شىء ، عصر الثورات فى العلاقات الانسانية ، على مستوى الامم والطبقات والعائلات والافراد، بل وعلى مستوى العلاقات الخاصة الشديدة الخصوصية •

وهناك اجماع كامل على انه لا يوجد اى انسان او اية قوة تستطيع ان تتجنب او تتجاهل التغيرات الثورية التى تاخذ بتلابيب العالم كل يوم بل وكل ساعة ، وتقتحم بنتائجها حتى ابواب غرف النوم •

وهذا التحدى الثورى للعصر الذى نعيش فيه يستلزم مواجهته بثورة عصرية عقلانية ديمقراطية اشتراكية ، على مستوى الامة ، بل وعلى مستوى كل فرد فى الامة • أويكون الثمن هو الثورة المضادة •

وعلى مستوى الامة العربية ، فاننا نستطيع ان نقول انا العصر الثورى بدا بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ •

لماذا ؟

لان ثورة ٢٣ يوليو – وعلى حد تقدير الرئيس أنور السادات – كانت نقطة الانطلاق نحو ان يعيد الشعب العربى اكتشاف ذاته، وان يتعرف على الامكانيات الهائلة الكامنة فى بنيانه •

ولقد فجرت ثورة ٢٣ يوليو طاقة الشعب العربى ، التى صمدت أمام مختلف الضغوط المعادية للثورة وللتطورية : الضغوط الاستعمارية ، والضغوط الرجعية ، وضغوط قوى التخلف الموضوعية واللذاتية •

واستطاعت ثورة ٢٣ يوليو ان تخلق بتلك الطاقة حركة جذرية ، سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية، لاحداث تغييرات اساسية فى العلاقات الانسانية •

وكان من شان كل ما حققته ثورة ٢٣ يوليو ، بل وما حاولته ولم تستطع تحقيقه، ان ارسى الاسس الوطيدة للعمل الوطنى • وهى الاسس التى اصبحت – وعلى حد تعبير الرئيس السادات – « جزءا من تراث الانسانية » ، تتامله وتدرسه بعض الشعوب لكى تتسلح به فى نضالها العادل ضد الاستعمار والاستغلال •

وبهذا كله اصبحت ثورة ٢٣ يوليو – وعن جدارة تمثالية – جزءا لا يتجزأ من الثورة العالمية المعاصرة •

وعليها ان تحافظ دائما على هذه العلاقة •

ثانيا :

ان تحافظ الثورة وتدعم الوحدة الوطنية النضالية بين الزعيم والجيش والشعب • وتحافظ على قدرتها الدائمة على التصحيح •

ومن الممكن ان نقول انه فى التقييم الاخير لمسيرة الثورة حتى اليوم ، فان هناك ثلاث قواعد اساسية لثورة ٢٣ يوليو :

١ – هناك قاعدة الزعامة والقيادة •

ولقد اكتسب الزعيم الراحل جمال عبدالناصر مكانة تاريخية عظيمة ، بنضاله وقيادته الحكيمة لمسيرة ثورة ٢٣ يوليو ، وبانتمائه ، الذى لم يتزعزع ابدا ، الى جماهير شعبه والشعب العربى وشعوب العالم العريضة ، وبثوريته الدائمة وقدرته على المراجعة دون التراجع ، وبصداقته الوطيدة والمخلصة لكل القوى المحبة للسلام والحرية والتقدم •

ولعل عظمة الزعيم الراحل جمال عبدالناصر تكمن فى انه ناضل من أجل ما كان يبدو مستحيلا ، واستطاع أن يجعله ممكنا فى اغلب الاحيان •

والامم الطموحة حقا ، والتى تريد ان تواجه تحديات عصرها ، هى التى تنشد المستحيل وتناضل من اجل ان يصبح ممكنا ، وهى ليست تلك التى تكتفى بالممكن المتاح لها ، تستكين اليه وترضى به • والنضال من اجل المستحيل هو ضمان التقدم ، اما الاكتفاء بالممكن فانه يكمن خطر التراجع ، او فى أفضل الاحوال خطر « محلك سر » •

٢ – هناك دور الجيش فى حماية الوطن والثورة ••

ولقد قام الجيش بدور اجتماعى ثورى تاريخى فى ظل ثورة ٢٣ يوليو • وساهم فى أغلب التغييرات الجذرية التى حققتها الثورة•

وهذا الدور ليس غريبا او جديدا على الجيش المصرى طوال تاريخه ، وخاصة فى ثورة عرابى ، بل واثناء ثورة ١٩١٩ ، وما بعد ذلك ، عبر ما كان يوصف باسم « ازمة الجيش » ، حتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ •

ولقد كان لدور الجيش المصرى فى ثورة ٢٣ يوليو انعكاسه الواضح الذى غير المفهوم التقليدى عن دور العسكريين وخاصة فى البلاد النامية • وكان دافعا الى اعادة دراسة هذا الدور على ضوء ماحققته ثورة ٢٣ يوليو •

ومهما كانت النتائج العسكرية التى ترتبت على حرب يونيو ١٩٦٧ على القوات المسلحة ، فان الجيش هو الدرع الواقية للوطن ،وقوته وكفاءته هى ضمان قوة المواطنين وكفاءتهم •

٣ – هناك فاعلية الشعب ، وخاصة عماله وفلاحيه ، فى الانتاج ، وفى تحقيق كل التغييرات الثورية الضرورية •

ولقد كشف الشعب المصرى فى ظل ثورة ٢٣ يوليو – كما كشف دائما من قبل – عن اصالة معدنه ، وعن ثوريته الطبيعية بحكم تاريخه وظروفه الاجتماعية ، وعن حرصه على وحدة صفوفه •

واستطاع هذا الشعب ، بقيادة الزعيم وفى حماية قواته المسلحة ، أن يحقق منجزات رئيسية •

كما استطاع هذا الشعب ان يحدث تغييرات رئيسية فى الاطار السياسى والتشريعى والادارى الذى يتم فيه الانتاج •

٤ – ثم هناك قدرة الثورة الدائمة على التصحيح :

ولقد كانت للثورة وقياداتها وقواها اخطاؤها ونقائصها • وبعض هذه الاخطاء والنقائص ناتج عن ظروف موضوعية ، تاريخية واجتماعية وبعضها الاخر ناتج عن ظروف ذاتية خاصة بالتقدير والتوجيه والتخطيط ، والنقد الذاتى، ومدى حرية الراى •

لكن الثورة استطاعت دائما وبالاعتماد على الزعيم والجيش والشعب ، ان تصحح الاخطاء وان تتجاوز النقائص ، بالمراجعة وليس بالتراجع وبالاندفاع الثورى الاقوى ، وبتصفية مراكز تعويق التصحيح

ولقد شهدت الثورة على طول السنوات التسع عشرة من تاريخها ، محاولات تصحيح عديدة وتصفية لمراكز تعويق مسيرتها ، ابتداء من اول تصحيح تم قبيل صدور قانون الاصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ ، عندما كان رئيس الوزراء الذى اختارته الثورة مركز تعويق لصدور هذا القانون ، الى اخر حركة تصحيح ، وربما لا تكون الاخيرة ، فى ١٥ مايو ١٩٧١ •

وامام ثورة ٢٣ يوليو ، اليوم ، كما كان أمامها يوم قامت منذ ١٩ سنة ، تحديان :

تحدى القوة المحتلة للارض ، ومهمة تحرير هذه الارض المحتلة •

وتحدى القوة الحضارية الثورية المعاصرة ومهمة بناء دولة عصرية تتسلح مدنيا وعسكريا باحدث أسس العلم والتقدم والايمان •

ولقد سلكت الثورة فى مواجهتها للتحديين يوم قيامها ، طريقا واضحا هو طريق تجديد المجتمع بتغيير نظام العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية الذى كان سائدا من قبل ، والنضال المسلح – السياسى لتحرير الارض من الاحتلال البريطانى •

وحققت الثورة تحرير الارض من الاحتلال القديم ، وقطعت شوطا طويلا فى طريق التجديد •

لكن هزيمة يونيو ١٩٦٧ نبهت الى ان ما تم لم يكن كافيا لمواجهة التحدى الاسرائيلى ، الصهيونى الاستعمارى ، الجديد •

ولقد حاول اعداء الثورة ، من الاستعماريين والصهيونيين والرجعيين ، ان يصوروا الهزيمة على انها هزيمة للثورة وللثوريين • لكن سرعان ما اتضح لهم ان الهزيمة كانت فى الواقع هزيمة للذين حولوا مراكز الثورة الى مراكز قوى ونفوذ شخصى ، وحولوا النضال الثورى المفتوح الى تامر سرى فى الظلام ، وحولوا المكاسب الاجتماعية والاقتصادية التى تحققت من اجل المحرومين ، الى مزايا وامتيازات واكتنازات من أجل الموسرين •

ولعل أعدى اعداء الثورة هم فى اكثرهم من الذين استفادوا شخصيا منها ، باستغلال النفوذ ، والانتهازية ، والنفاق والتلون ، بتسخير المنجزات الثورية فى خدمتهم ، وليس بتسخير انجازاتهم هم فى خدمة الثورة •

ولم يهزم الشعب فى عام ١٩٦٧ • ولم يقبل الهزيمة •

ومع هذا ، فالاحتلال مرير ، وممزق للنفس •

لكن المرارة يجب أن نترجمها الى كراهية للعدو لا نكرهه ولكن لاحتقره ، نفقد قوته على حقيقتها ولكن لا إنخافه •

وتمزق النفس لا ينبغى أن يتحول الى تمزيق للنفوس •

ثم لنكتسب وعيا اعرض واعمق واكثر عقلانية بأن التحدى الاسرائيلى ليس مجرد تحدى احتلال الارض ، وانما هو تحد حضارى بكل ما لمثل هذا التحدى من أبعاد •

وفى جميع الاحوال ، فان علينا أن نضع كل ما حدث وما يمكن ان يحدث فى اطاره السليم ، كما وضعه الرئيس أنور السادات فى بيانه التاريخى يوم العاشر من يونيو حين قال :

« ان الشعب المصرى البطل الذى ارسى دعائم ثورة ٢٣ يوليو ، بقيادة زعيمه الخالد جمال لن يسمح لاحد ايا كان بان يمسها او يحرف مسيرته بعيدا عنها •

« انها خلاصة فكره وتجربته ، خلاصة عرقه ودمه على مر الاجيال • بناها خلال نضاله الطويل تصحيحا لماضيه ، وتعبيرا عن حاضره وتصورا لمستقبله »

والرئيس السادات هو القائل :

« ان شعب ٢٣ يوليو ، الذى قضى على تحالف الاستعمار والملكية والاقطاع والرجعية هو نفسه الشعب الذى اصدر قوانين يوليو المجيدة ، وصاغ الميثاق ، واختار بعزم واصرار طريق التحول الاشتراكى •

وهو نفسه شعب ٩ ، ١٠ يونيو ، الذى وقف الهزيمة ، وصفى بعدها مراكز القوة التى ظهرت اذ ذاك ، والتى وصفها الزعيم جمال فى بيان ٣٠ مارس بانها وقفت فى طريق التصحيح خوفا من ضياع نفوذها ، ومن انكشاف ما كان خافيا من تصرفاتها • وكان ذلك لو ترك وشانه ، كفيلا بتهديم جبهة الصمود الشعبى •

« وهو نفسه شعب ١٥ مايو الذى قام ليخرب مراكز القوى الجديدة »

واضيف ، ان حق لى ذلك :

وهو نفسه الشعب القادر على مواجهة تحدى الاحتلال الاسرائيلى الغاصب الاجل ، ومواجهة التحدى الثورى الحضارى لسنوات وسنوات مقبلة •